الأدب المهـــنى
أو
أدب أرباب المهن

للاديب خليل رشيد

— ٢ —

إلى أولئك النفر القليل ممن جادت بهم الحياة ووهبتهم النبوغ والعبقرية الذين أبوا العيش إلا من قوة أيديهم وعرق جباههم تقدم هذا الحديث.

— السرى الرفاء —

السرى الرفاء — قيثار الشعر وعبقرى الأدب فلتة من وفلتات الزمن ونفحة فواحة من نفحات الطبيعة. جادت به الدنيا وقلما جادت بأمثاله ، وان جادت فبالنزر القليل ، لنتعرف عليه ونرى منزلته ومكانته الأدبية من المصادر التاريخية. ومن أقوال مؤرخى الأدب والثقات من رواته قبل الخوض فى الموضوع لنضعه فى مكانته اللائقة به على ضوء العلم والتاريخ لئلا نغمط الرجل حقه أو نعطيه فوق ما يستحق : قال الجلبى فى كشف الظنون . كان السرى الرفاء مغرى بنسخ ديوان أبى الفتح كشاجم وهو إذ ذاك ريحان الأدب. وقال ابن النديم فى الفهرست ص ٢٤١: السرى الرفاء بن أحمد الكندى من أهل الموصل شاعر مطبوع عذب الألفاظ مليح المأخذ كثير الافتنان فى التشبيهات والأوصاف. وجاء فى اليتيمة للثعالبى من المجلد الثانى ص ١٠٣ ما هذا نصه . بلغنى أنه أسلم صبياً فى الرقائين فكان يرقو ويطرز إلى أن قضى باكورة شبابه. وجاء فى دائرة معارف فريد وجدى ص ١١٨ من المجلد الخامس تحت عنوان السرى الرفاء . — هو أبو الحسن السرى بن أحمد بن السرى الكندى الرفاء الموصلى الشاعر المشهور. كان السرى الرفاء فى صباه يرقو ويطرز فى دكان بالموصل وهو مع ذلك مولع بالأدب وينظم الشعر؛ ولم يزل دائبا على ذلك حتى بلغ شعره غاية بعيدة من الجودة وحسن السبك، فقصد سيف الدولة ابن حمدان بحلب ومدحه وأقام عنده مدة ثم انتقل بعد وفاته إلى بغداد . وكان السرى الرفاء مطبوعا على الشعر رقيق الألفاظ متين المبانى كثير الافتنان فى التشبيهات والأوصاف ولم يكن له رواء ولا منظر حسن. وكان لا يحسن غير قرض الشعر وقد وقع ديوانه فى ثلثمائة ورقة ثم زاد عليه وقد رتبه بعضهم على حروف المعجم. وقد قال صاحب معجم الأدباء ياقوت فى الصفحة ١٨٤ من جلد الـ ١١ قلما جاد شعره انتقل من حرفة الرقو إلى حرفة الأدب واشتغل بالوراقة . وجاء فى المعجم لأبى هلال العسكرى فى الصفحة ١٥ . كان السرى الرفاء يطرز الخلق، ويرقو الخرق، وهو فى ذلك يسترزق الابرة ، بنفس ملأتها الحسرة . فلولا مجهر مؤرخى الأدب ومدونى التاريخ لأحطنا بشىء كثير من الابهـام والغموض ، ولظلت شخصيـة السرى مجهولة وهى شخصية شخصيتين شخصية العامل المجد الذى يكافح من أجل العيش. يطرز الخلق، ويرقو الخرق، يسترزق الابرة، بنفس ملأتها الحسرة، فلا يكاد يجد الكفاف الخشن .

وشخصيته الأخرى تناقض هذه الشخصية كما ظهر لنا من تحت المجهر وبينهما من النسب المنطقية التباين إذ نجده قائما ينشد سيف الدولة وهو مختال فخور فيقول . —

أبمستقى نعما رأيت بها الدجى	صبحا وكنت أرى الصباح بهيما
فغدوت بحمدى الصديق وقبلها	قد كان يلقانى العدو رحيما
فملأت آفاق البـلاد بمنطق	لولا الثنـاء عليك عاد وجوما
فسلمت من نوب الزمان ولا غدا	شانيك من معنى السليم سليما

فى الوقت المناسب » .

اننا فى حاجة إلى مثل هذا الكتاب الذى أشرت اليه ، نعم فى حاجة اليه، لكى نحتفظ نحن فى مصر ، بالروح العسكرية التى ورثناها عن أجدادنا : عن عمرو بن العاص وصلاح الدين والظاهر بيبرس . ان المحافظة على كياننا واستقلالنا تحتم أن نكون موضع ثقة واحترام الأمم الكبرى ، ولكى نصل إلى شىء من ذلك يجب أن نكون أقوياء ، ولن نصل إلى القوة والنصر إلا إذا عرفنا أسباب هزائمنا وعلة تفككنا وعوامل نكبتنا .

أحمد رمزى

طلب الملوك غبار شأوك فانثنوا صفر اليدين وخادما وذميما
أن يسمحوا في الحين أن يتكلفوا كرم النفوس فقد خلقت كريما

وكأني به وهو ينشد قصيدة هذا ينثر الدنانير عليه ويكافأ عن كل قصيدة بالف من الدنانير أو تزيد . وتحترق كلماته صماخ أذن سيف الدولة وهو مصغ لما يقول رغم من قال .

ودع كل صوت غير صوتي فانني أنا الطائر المحكي والآخر الصدى

ولسنا ندري بالضبط متى اتصل شاعرنا بسيف الدولة؛ ولكن الذي ندريه من ضوء المصادر التاريخية أنه لما حسن شعره وبلغ غاية بعيدة من الجودة وحسن السبك قصد سيف الدولة بن حمدان بحلب وأقام عنده إلى أن مات وانتقل بعد وفاته إلى بغداد . ولقد شق هذا الشاعر طريقه حتى تبوأ الصدر من دولة الشعر في زمن سيف الدولة بن حمدان ذلك الزمن الزاخر بالشعر والأدب الملىء بالعباقرة والمئتين أمثال الأمير الحمداني أبي فراس وعبقري الشعر ونابغة الأدب أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي وغيرهم كثير. وقد استطاع الرفاء أن يأخذ طريقه دون أن يرتطم بتلك الصخرة الجبارة التي كثيرا ما حطمت من فحول الشعر ونوابغ الأدب صخرة أبي الطيب المتنبي . فتأتى مكانته بعد مكانة أبي الطيب مباشرة ثم نراه يمعن في إكرامه والانعام عليه كما نراه يمعن في مديح سيف الدولة فيقول :-

أما الخيال فما يغب طروقا يدنو بوصلك شائقا ومشوقا
وفي فحقق لي الوفاء ولم يزل خدن الصبابة بالوفاء حقيقا

ثم يقول منها

أهوى أنيق الحسن مقتبل الصبا وأزور مخضر الجناب أنيقا
راح النعام به خفيفا ثوبه وغدا به ثوب النسيم رقيقا
هي غدرة للدهر غادرت الهوى بعد الوفاء مكدرا مطروقا
لا ألحظ الأيام لحظة راصق حتى يعيد زماننا المرموقا
وركائب يخرجن من غلس الدجى مثل السهام مرقن منه سروقا
والفجر معقول الرداء كأنه جلباب خود أشبعته خلوقا
أغمامة بالشام شمن بروقها أم شمن من بشر الأمير بروقا
ملك تسهل بالسماح يمينه حزنا وتوسع بالصوارم ضيقا
رحب المنازل ما أقام فان سرى في جحفل ترك الفضاء مضيقا
ما انفك يطلع بالخنوف على المدا صبحا ويطرق بالحسام طروقا
فاذا جرى للجد نال صبوحه سيفا ونال الناس منه غبوقا
وإذا طمى بحر الكريهة خاضه فأمات من عاداه فيه غريقا
مهلا عداة الدين ان لحصمكم حلقا بارغام العدو خليقا

وهكذا نراه وقد انقادت إليه المعاني وشوارد الكلم فيصيره عقدا نظيما من الشعر يلبسه جيد الدهر والخلود كأنه المعنى ببيت أبي الطيب

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

ثم نراه قبل أن أطلقته نعمة سيف الدولة وأبطرته وقد تفرغ من مشاكل خبزه إلى ما نزع إليه المترفون من لين الحياة وبلهية العيش فينصرف للعبث والمجون ونحن نفسه إلى وسوسة الكؤوس وعزة القيان والغلمان فيقول في غلام يهواه :-

بنفسي من أجود له بنفسي ويبخل بالتحية والسلام
ويلقاني بعزة مستطيل والقاه بذلة مستهام
وحتفي كامن في مقلتيه كمون الموت في حد الحسام

ثم يقول من خمرية له :-

إلا فاسقنيها صرفا فانني إن لام فيها ما حييت مخالف
ألست ترى وشي الرياض كأنما تنشر في ارجائهن الطارف
ومشمولة شج السقاة كؤوسها فأشرق وجه الصبح والليل عاكف
ولاح على الكاسات فاضلها كما تلوح على خر الخدود السوالف

ثم يتنامى أيامه الأولى :- أيام ضيقه وبؤسه وشقاه أيام قال فيها .

هي الأيام أن جمحت عنادا أذلت كل جبار عنيد
تنام وتترك الاحداق يقظى ولوح الطيف بالركب الهجود

ويوم قال فيه :-

الدهر كالنشوان في اصلاحه ماراح يصلحه وفي أفساده
راع لنا يجتاح دثر سوامه واب لنا يسطو على أولاده

ويوم قال :-

سفر رجوت به النهاية في الغنى قبلت منه نهاية الأملاق
مثل الهلال أغذ شهرا كاملا فرماه آخر شهره بمحاق

ويوم قال :-

فوض خيامك من دار ظلمت بها ... وجانب الذل أن الذل يجتنب
وارحل إذا كانت الأوطان مضيمة ... فالمندل الرطب في أوطانه حطب

كل هذا يقتاسه شاعرنا الرقاء ويقمس نفسه باللذة انغماس المترف البطر الذي بسمت له الحياة فأنسته متاعب العيش وأوصاب الحياة لا يعنيه شيء من دنياه غير الغادة والغلام والخمرة والدن فيذهب منغمسا في لذته غير عابئ بالعذل ممن جبلت نفوسهم على العذل واللوم — وتكدير صفو من صفا له الجو وبسمت له الحياة فيقول . —

إن عن لهو أو سنح ... فاغد الى اللهو ورح
رضيت أن احظى بعز ... اليأس والعز منح
وصاحب يقدح لي ... نار السرور بالقدح
فرحت مطوى المنى ... لا ازجر الطير الروح
ولا أقول لامرىء ... ضن بمال أو سمح
ولا أرى من صبوة ... نهج التقى وأن وضح
تصافح الكاس يدي ... ماأرتد خطب أو صفح
في روضة قد لبست ... من أؤلؤ الطل سبح
يالفتى حمامها ... مغتبقا ومصطبح
أوقظه بالعزف أو ... يوقظني إذا صدح
والجو في مسك طرازه ... قوس قزح
يبكي بلا حزن كما ... يضحك من غير فرح
كم جامع ممتنع ... خليته لما جمع
وكم عذول ناصح ... قلت له وقد نصح
أقصر فمن رام صلاح العيش بالكأس صلح

وكثيرا ماتراه يستلب المثل في شعره ومن شعره يستلب المثل، وهذه إن دلت على شيء فانما تدل على نضج العقلية والقدرة المسيطرة على غرر المعاني ونوادر الكلم. ولم تتأت مثل هذه الناحية إلا لشاعر مطبوع قال من قصيدة في علة نالته وعاده فيها بعض اعدائه وقد انقاد المثل اليه

أصبر على مترادف الضراء ... فلعل ذلك مؤذن بشفاء
ماحال من لعب السقام بجسمه ... ظلما فمض نفسية الأعضاء
حظر الطبيب عليه طيب غذائه ... واباحه مكروه كل غذاء

٣٢ ، ٣٥

ويعوده أعداؤه واشد من ... (مرض المريض عيادة الأعداء)

إلى غير ذلك من الامثال الرقيمة التي تتلاءم والنفوس وتنسجم وطبيعة الانسان مما لانستطيع ذكره بمثل هذه المجالة التي قد تستوعب من وقتك أكثر مما تعطيك من فائدة ولم نرد بهذه الكلمة غير اعطائك لمحة قصيرة عن حياة هذا الشاعر العبقري . ولم يقف شاعرنا وقد ملأ ذكره فم الدهر ومسمعه وصار أنشودة الزمن والخلود فكان لزاما عليه تحلية ديوان شعره بمديح آل الرسول (ص) فقال من قصيدة . —

الوارثون كتاب الله ينجدهم ... أرث النبي على رغم المعادينا
والسابقون إلى الخيرات ينجدهم ... عنف النجار إذا كل المجارونا
قوم نصلي عليهم حين نذكرهم ... حيا ونلعن أقواما ملا عينا
إذا عددنا قريشا في اباطحها ... كانوا الذوائب منها والعرانينا
اغنتهم عن صفات المادحين لهم ... مدائح الله في طه وياسينا
فلست امدحهم إلا لأرغم في ... مديحهم انف شانيهم وشانينا
أقام روح وريحان على جدث ... شلو الحسين به ظمآن آمينا
كأن احشاءنا من ذكره أبدا ... تطوى على الجمر أو تحشى السكاكينا
مهلا فما نقضوا أوتار والده ... وإنما نقضوا في قتله الدينا
آل النبي وجدنا حبكم سببا ... يرضى الآله به عنا ويرضينا
فما نخاطبكم الا بسادتنا ... ولا نناديكم إلا موالينا
وكم لنا من نخار في مودتكم ... يزيدها في سواد القلب تمكينا
ومن عدو لكم نخف عداوته ... والله يرميه عنا وهو يرمينا
ان أجر في حبكم جرى الجواد فقد ... اضحت رحاب عساكيم ميادينا
وكيف بعدكم شعري وذكركم ... يزيد مستحسن الاشعار تحسينا

ونثبت لنا قصيدته هذه أنه علوي النزعة والمذهب يدين بما يدين به آل الرسول ويذهب مذهبهم: ونراه يخالف معتقده ويمجن في أغلب الاحايين مجون النواسي الخليع أو هو أشد منه مجونا حين يقول . —

ليالي كان لي في كل يوم ... الى الحانات حج وأعتمار
فمن ذكر القيامة في صدود ... وعن ساح الماجد في نفار

وهذا يناقض قوله سابقا . —

آل النبي وجدنا حبكم سببا ... يرضى الاله به عنا ويرضينا

لايهم من به صدود عن ذكر القيامة ونفار عن ساح الماجد رضى الله عنه أم غضب، ولكنها هفوات شاعر لا يؤخذ عليها فى ساعة عبث وجنون ولهو ولم يقلها عن عقيدة وإيمان كما قال قصيدته تلك المنبعثة عن إيمان راسخ ومعتقد قوى رصين حين يقول

فلست أمدحهم إلا لأرغم فى مديحهم أنف شانيهم وشانينا

لسنا الآن بصدد هذا كله ولم نرد بحديثنا البحث عن معتقد السرى الرفاء وما يدين به، ولم نصل ببحثنا حتى الآن الى الغاية التى من أجلها كتبت هذه الكلمة وجرى هذا البحث.

أقول هل يفضل السرى الرفاء عيشه الرضى الناعم هنا على عيشه المهنى؟.. وهل عاوده الحنين إلى أيامه الاولى بعد أن قال.

رفق الزمان بنا وكان عنيفا وغدا لنا بعد القراع حليفا

وهل عاودته ذكريات الماضى السحيق ذكريات أيامه الأول أيام كان يسترزق الأبرة بنفس ملأها الحسرة؟.. وهل أنساه هذا النعيم الذى يرفل فيه أيام بؤسه وشقاه؟.. ألا يزال يحن إلى تلك الذكريات ذكريات أيامه الأول.؟ هذه أسئلة نطرحها على صفحات ديوانه. فيجيبنا الديوان بهذه القصيدة المملوءة شوقا وحنينا إلى بلد صبوته الموصل فيقول.

شباب المرء ثوب مستعار وأيام الصبا أبدا قصار
طوى الدهر الجديد من التصابى وليس لما طوى الدهر انتشار
ولم نعط المنى فى القرب منها فكيف بها وقد شط المزار
صدود فى التقارب واجتناب وشوق فى التباعد وادكار
لحى الله العراق وساكنيه فما للحر بينهم قرار
وجاد الموصل الغراء غيث يجود وللبروق به اسفرار
ففى أيامها حسن التصابى وفى اقبالها خلع العذار

ويقول فى قصيدة أخرى.—

أعل صبوتنا دعاء مشوق يرتاح منك إلى الهوى المرموق
هل أقضين المعربين عصابة سلكوا إلى اللذات كل طريق
أم هل أرى القصر المنيف معمما برداء غيم كالرداء رقيق
وتلألؤ الدير التى لولا النوى لم أرمها بقلى ولا بعقوق

إلى أن يقول. —

كان تذكر قبل ناهية النهى ظلين ظل هوى وظل حديق
فتفرقت عيدانه فى خده إذا لا مجير له من التفريق

ولم يكتف شاعرنا بهذا القدر من الذكريات. ذكريات الماضى من صباه، بل راح ينشد من صان ماء وجهه من الابتذال وحفظ شوارد كلمه من سوق الرقيق ومن موقف لا يريده ولا يرتضيه موقف المستجدى الذى يطلب رشح الاكف بما يقول فقال وفى نفسه يحز الألم. —

وكانت الابرة فيما مضى صائنة وجهى واشعارى
حتى غدا الرزق بها ضيقا كأنه من ثقبها جارى

ونختم حديثنا هذا عن السرى الرفاء ببيت قصيده هذا؛ وإلى أبى الحسين الجزار فى المقالة القادمة أن اتسع لنا صدر الرسالة الغراء. —

العمارة — العراق خليل رشيد

تاريخ الأدب العربى

للاستاذ أحمد حسن الزيات

يؤرخ الأدب العربى من عصر الجاهلية إلى هذا العصر بأسلوب قوى، واستيعاب موجز وتحليل مفصل واختيار موفق ومقارنة بين الأدب العربى والآداب الأخرى

طبع أثنى عشرة مرة فى ٥٢٥ صفحة
وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد